الحلقة (١٣)

مازال الحديث عن أدوار الفقه الإسلامي، تحدثنا عن الدور الأول وهو عهد التشريع في زمن الرسول ﷺ وأيضا الفقه في عصر الخلافة الراشدة من سنة ١١هإلى سنة٤٠همن الهجرة النبوية، والدور الثالث الذي يبدأ بالفقه بعد عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل القرن الثاني للهجرة ويشتمل هذا الدور على صغار الصحابة وكبار التابعين، وهذا هو مدار حديثنا في هذه الحلقة، وهو ما يسمى:

* الدور التأسيسي للفقه: ويشمل العهد الفقهي في العصر الأموي، ويبدأ من عام٤١هوينتهي سنة ١٣٢ه، ويتكون من صغار الصحابة وكبار التابعين، وقد تخرج على أيدي الصحابة تلاميذهم من التابعين، وقد وجد هؤلاء ثروة من الاجتهاد الفقهي، فكان عملهم أن جمعوا فتاوى الصحابة واجتهاداتهم، واجتهدوا فيما لم يجدوا للصحابة فيه رأيا أو فتوى مقتفين أثر الصحابة في كيفية الاجتهاد واستنباط الأحكام، ولم يخلُ بلد من البلاد التي يحكمها الإسلام إلا وفيه من هؤلاء الفقهاء الذين أخذوا العلم بحقه فنشروه.

فكان مفتي مكة وفقيهها هو عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس، وكان **مفتي المدينة** وفقيهها هو سعيد بن المسيب، وكان **مفتي اليمن** وفقيهها هو طاووس بن كيسان تتلمذ على ابن عباس، وكان **مفتي اليمامة** وفقيهها هو يحي بن أبي كثير، وكان **مفتي الكوفة** وفقيهها هو إبراهيم النخاعي، وكان **مفتي البصرة** وفقيهها هو الحسن بن أبي الحسن البصري المتوفى سنة ١١١ه، **مفتي أهل الشام** وفقيهها هو مكحول بن أبي مسلم الهذلي وأبو إدريس الخولاني أخذا العلم عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت، وكان **مفتي أهل خرسان** وفقيهها هو عطاء الخرساني، وكان **مفتي مصر** وفقيهها هو يزيد بن أبي حبيب والليث بن سعد ووكير بن عبد الله الأشج، وكان **مفتي القيروان** وفقيهها هو سحنون بن سعيد.

إذاً كما قال الكتاني: "منتهى غالب سلاسل الفقه المالكي والحنبلي إلى عبد الله بن عمر، ومنتهى غالب سلاسل الفقه الحنفي إلى عبد الله بن مسعود، ومنتهى غالب سلاسل الفقه الشافعي إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أجمعين"، وكان العلم الشرعي شائعا في هذا الدور، وقد بدأت تدوين العلوم الإسلامية في أواخر هذا الدور من أوائل القرن الثاني، فدُونت بعض سنة المصطفى ﷺ وفتاوى الصحابة وتفسير القرآن والفقه.

***وأول كتاب دُون في هذا الدور** ووصل إلينا هو **كتاب الموطأ**، وقد كان لمدرسة الحجاز ومدرسة العراق عظيم الأثر في إشاعة العلم وتفقيه الناس، وقد انتقل إلى العراق نحواً من ثلاثمائة من الصحابة، بينما انتقل إلى مصر والشام نحو هذا العدد، فكانت العراق بحق أكثر البلاد ظفرا بعلماء الصحابة، ولهذا لم يزاحِم أهل الحجاز على زعامة الفقه إلا علماء العراق، فكانت بين العراقيين والحجازيين

كثير من المناظرات، يقول ابن خلدون رحمه الله في مقدمته: "انقسم الفقه فيهم -أي التابعين- إلى طريقتين: **طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز**، وكان الحديث قليلاً في أهل العراق وقد استكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي.

وفي هذا الدور تعذر الإجماع **لماذا؟** لتفرق الصحابة وضعف الاتصال فيما بينهم، كما شاعت في هذا الدور رواية الحديث، وشاع الكذب والوضع فيه، مما جعل العلماء رحمهم الله تعالى يضعون شروطا و ضوابط لمن يأخذ عنهم حديث رسول ﷺ، أيضا في هذا الدور افترق المسلمون إلى طوائف وأحزاب، فكان أهل السنة والجماعة، والخوارج والشيعة، وكان لهذه الخلافات أثر كبير على الفقه.

فالشيعة مثلا شذوا في أصولهم وفي طريقتهم بالأخذ بالحديث، فهم لا يعتمدون إلا على الأحاديث التي رويت عن طريق العترة وهم أهل البيت، يقول ابن خلدون رحمه الله: "وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية [إلى أن قال] فكُتُب الشيعة في بلادهم، وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن".

إذاً يعني في هذا الدور يعني وجدت أو نشأت الفرق والطوائف، فهناك أهل السنة والجماعة، وهناك أيضا نشأت فرقة الخوارج، وهناك أيضا نشأت فرقة الشيعة، ولاشك أن لهذه الخلافات أثر كبير على الفقه، والخوارج أيضا لهم أراء في الخلافة وغيرها كما قال بن خلدون رحمه الله: "وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقذف، فلا نعرف سير مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا أثرا لشيء منها إلا في مواطنهم..[إلى أن قال]..والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتعاريف وأراء في الفقه غريبة" [لمزيد من هذا الكلام تراجع مقدمة ابن خلدون في تقريبا بعض الطبعات صفحة (٦٤٤)] إذاً لاشك أن لهذه الخلافات أثر كبير على تفرق الأمة ومن ثم انعكس هذا على فقه هذه الأمة.

نتحدث بإيجاز عن المدرستين مدرسة الحجاز ومدرسة العراق:

المدرسة الأولى: مدرسة الحديث أو مدرسة الحجاز: هذه المدرسة تمتاز بكثرة الاهتمام بالحديث والرواية عن الرسول ﷺ، لأن المدينة هي دار الهجرة ومركز الخلافة ومقر كبار الصحابة، لذا كثر فيها العلم ورواة الحديث عن رسول الله ﷺ، إذ كل الصحابة رأوا الرسول ﷺ وسمعوا منه رجالا وأطفالا ونساء، كما أن الأحاديث التي تنهى عن القول بالرأي كان لها أثرا في عدم لجوء أهل الحجاز إلى القول بالرأي.

من علماء وأساتذة هذه المدرسة: ١.زيد بن ثابت، ٢.عبد الله بن عمر بن الخطاب، ٣.عائشة بنت أبي بكر الصديق، إذاً هؤلاء من رواد مدرسة أهل الحديث بالحجاز.

وقد تخرج من هذه المدرسة، مدرسة أهل الحديث في الحجاز: ١.سعيد بن المسيب، ٢.عروة بن الزبير،

٣.سلمة بن عبدالرحمن بن عوف، ٤.ابن شهاب الزهري، ٥.نافع مولى بن عمر، ٦.سالم بن عبد الله بن عمر، وغيرهم، وكان في مكة عبد الله بن عباس وبعض الصحابة الذين انتقلوا إليها.

بعض الأمور التي تميزت بها مدرسة أهل الحجاز:

أولاً: كراهتهم للأسئلة وفرض المسائل، وذلك تأسيا برسول ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج).

ثانياً: الاعتداد بالحديث والوقوف عند الآثار، **وقد نشأ عن مدرسة أهل الحديث**: المذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي والمذهب الظاهري.

واشتهر في المدينة فقهاء أطلق عليهم الفقهاء السبعة وهم: ١.سعيد المسيب، ٢.عروة بن الزبير، ٣.القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ٤.خارجة بن زيد بن ثابت، ٥.أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ٦.سليمان بن يسار، ٧.عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما قال الناظم في ذلك:

إذا قيل من في العلم سبعة أبجر***روايتهم ليست عن العلم خارجة

فقل هم عبيد الله عروة قاسم*** سعيد أبو بكر سليمان خارجة

*نعرف لكل منهم بترجمة مختصرة نقول:

١.**سعيد بن المسيب**: ولد سنة ١٣هبالمدينة وتوفي فيها سنة ٩٤ه، وهو سعيد بن مسيب بن حسن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين وشيخ الحديث والفقه، كان رحمه الله زاهدا ورعا وكان أحفظ الناس لأقدية عمر بن الخطاب حتى سمي براوية عمر، وقد أخذ كثير مما رواه أبو هريرة إذ هو زوج ابنته[يرجع هنا إلى إعلام الموقعين في الجزء الثاني وغيره من الكتب، مثل سير أعلام النبلاء للذهبي، والطبقات الكبرى لابن سعد].

٢.**عروة ابن الزبير بن العوام**: ولد عام ٢٢هوتوفي بالمدينة سنة ٩٣ه) وهو عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، عالم صالح كريم تنحى بعيدا عند نشوء الفتن، انتقل إلى البصرة من المدينة، ثم رحل إلى مصر فتزوج هناك وأقام بها سبع سنين، ثم عاد إلى المدينة وتوفي بها وإليه تنسب بئر عروة.

٣.**القاسم بن محمد**: ولد بالمدينة سنة ٣٧هوتوفي في قديد [مكان بين مكة والمدينة] سنة ١٠٧ه) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أحد الفقهاء السبعة،كف بصرة في آخر حياته، وقال ابن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه، وقد أخذ العلم عن عمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٤.**خارجة بن زيد**: ولد بالمدينة سنة ٢٩هوتوفي بها سنة ٩٩هو هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري من بني النجار، وأدرك زمن عثمان بن عفان.

٥.**أبو بكر بن عبد الرحمن**: لم يعرف زمن ولادته، توفي سنة ٩٤ه هو أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي، أحد الفقهاء السبعة ومن سادات التابعين، يلقب براهب قريش، وكان

مكفوفا،لم يعرف زمن ولادته بالضبط إلا أنها كانت في خلافة الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٦.**سليمان بن يسار**: سنة ٣٤هإلى ١٠٧ه، هو سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان أبوه فارسيا، وهو ثقة عالم فقيه كثير الحديث، قال ابن سعد كان سعيد بن المسيب إذا أتاه مستفتٍ يقول اذهب إلى سليمان فإنه أعلم من بقي اليوم، وقد ولد في خلافة عثمان، وأخذ العلم عن أم المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

٧.**عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:** هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود الهذلي، مفتي المدينة وأحد فقهائها السبعة كان عالما بالفقه والشعر، وقد أورد له أبو تمام في ديوان الحماسة شعرا جيدا، وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز رحمه الله، توفي بالمدينة سنة ٩٨ه، يقول ابن سعد رحمه الله عنه وكان ثقة فقيها كثير الحديث والعلم شاعرا.

المدرسة الثانية: مدرسة أهل الرأي (أهل الكوفة): وهي بالعراق حيث أن الكوفة نزل فيها عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من الصحابة، وقد تلقى عنهما العلم خلقٌ كثير منهم: علقمة النخعي الأسود، ومسروق، وشريح، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير.

***ميزة هذه المدرسة**: ١/ كثرة تفريعاتهم لفروع المسائل الفقهية.

٢/ استخراج علل الأقيسة وضبطها والتفريع عليها بتطبيق تلك العلل على الفروع المختلفة.

٣ / قلة روايتهم للحديث وذلك لتشددهم في الرواية، لماذا؟ لا عزوفا عنه، إنما خوفا من دخول الأحاديث المكذوبة والموضوعة على رسول الله ﷺ، إذ يكثر في العراق آنذاك الزنادقة والذين يدسون على الإسلام ويحقدون عليه، ثم إن الأحاديث في ذلك العصر لم تكن قد جُمعت ودونت.

وقد تفرع من هذه المدرسة المذهب الحنفي: إذ أبو حنيفة درس في هذه المدرسة وتعلم فيها، إذ هو تلميذ لحماد بن أبي سليمان الذي تتلمذ على إبراهيم النخعي، والنخعي تتلمذ على ابن مسعود، هذا ما تيسر لنا في هذه الحلقة.